خواطر في فلسفة التاريخ العربي

يعتقد المسعودي اظهاراً للبينة التاريخية الصادقة وجوب الرحلة الى الديار المختلفة[1] لسماع الحقائق من مصادرها والروايات من ينابيعها وتحري الفتّ والسمين منها. ولاريب انّ بمشاهدة الاقاليم يتسع الافق العقلي للمؤرخ فلا يُلازمُ وجهةً واحدة دون الوجهات الاخرى ولا يحكم حالاً في الامور بمجرد ما قد يتلقاهُ من مصدر واحد

وليس للمؤرخ ان يعتمد على كل مَنْ ادّعى العلم بالحادثات او انتحل كتابة التاريخ بل يجب عليهِ ان يتحقق من المشهود لهم بالعناية في القول والعمل المشهور بن بالفضل فيستنير بمؤلفاتهم وتصانيفهم. والحق ان لسيرة المرء وعلاقاتهِ الدينية والطائفية والسياسية والاجتماعية تأثيراً كبيراً في تدوينهِ التاريخ فاما ان يقودهُ هواهُ الى الاشادة بفضل الناس ليسوا من الفضل في شيء او تجرُّهُ المصلحة الى غض الطرف عن مساوئ كثيرة لحال سياسية ينتسب اليها او معتقد ديني يؤثر فيهِ او عادات وتقاليد يكره ذكرها ويأبى تطيرها . ومنهم الذين يكتبون التاريخ والصبغة التقديسية للسلف او الروح القومية الوطنية واضحة جلية فيهِ كأنما التاريخ ميدان لاظهار العاطفات وكامنات النفوس او مسرح لتمثيل الفاجعات والمهزلات

ليس المؤرخ استاذاً لالقاء المواعظ والعبر يستنتج الاسباب والفواعل حباً بنشر فكرة يرى كل الخير فيها لامتهِ او لحزبهِ او لشخصهِ ولا يردع القوم عن رأي قد يهيج عاطفاتهِ ولو سوّد صفحات الوطنية التي يُقدسها ويعبدها بل هو عالم يجمع الحقائق عالم متصف بالروح العلية السامية العادلة المتسعة الافق التي تظل فوق القمّة فلا تنغمس في مجادلات الاحزاب ولا في بنت فكرة من الافكار او رأي من الآراء على حساب التاريخ. عالم يُدوّن التاريخ على النمط العلمي العقلي الاستنتاجي الذي يربط الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل ويُظهرُ الصلة بينها في رقي الجماعات الانسانية في البيئات المختلفة

واذن فليس المؤرخ اديباً يُرصّعُ العبارات ويُنمّقها ويُضحي بالمعنى والحقيقة من أجل اللفظ والانشاء المنمق المملوء بالاستعارات والمجازات والتوريات وأشباهها. ولا هو امام يقف وقفة الخاشع المعتبر يدعو الناس الى البينة والدين الحق الذي يقول بهِ ولا هو صحافي

(١) راجع مقدمته في مروج الذهب ومعادن الجوهر . س م

يصبغ الحادثات بالالوان التي ترتئيها البرو باغندة او الدعاية التي يسير بحسبها ويدين بدينها ويدافع عنها ،ولا هو شاعرٌ لا يرى الاّ الالوان والخطوط الزاهية المتوهجة فيخوض في امور هي ادعى الى الحزن والبؤس من التناشد بها و يغرد شاجياً نادماً ويُرسِلُ عبارات احر من الجمر ويسكب دموعاً مؤلمات في وصف كارثة او حادثة فهو يخط بحبات قلبهِ ولا يتفيأ بظل العقل وتحكيم البصر والاختبار والقياس . ولا هو روائي يخلق سيف معمل اوهامهِ واحلامهِ اشخاصاً يخالفون سائر البشر في سلوكهم وآدابهم

وهناك مَنْ يظن ان كتابة التاريخ تعني ذكر كل شيءٍ جرى في عهد من العهود او عصر من العصور فيأخذ المؤرخ مثلاً مركزاً لابحاثهِ فيعدد ماجرى فيها من الحادثات من غير ارتباط بما حدث في غيرها مما يتعلّق بها

ومنهم من يظن ان ابحاث التاريخ مقصورة على ذكر الملوك او الغزوات

والخلاصة ان التقسيم الذي يجعل الزمن او الاشخاص او الحروب او المدن مركزاً للبحث فيهِ هو تقسيم اصطناعي يُضِلُّ المرء بدلاً من ان يهديهُ. اما التاريخ فهو حركات متصلة متشبكة يأخذ بعضها برقاب بعض وهي صورة للأعمال والمبادىء التي جاهد ويجاهد من اجلها الرجل العامي

والمؤرخ الذي لا يعتمد الاّ على النقل دون العقل ينهج منهج الجماعين الذين يذكرون الروايات على علاتها قويت اسانيدها او وهنت وناقض بعضها بعضاً او لم يناقض وجُرِّدت عن القياس والتمحيص او لم تجرَّد. وقد وقع في هذا الخطإ الطبري فانهُ كان يرى ان التاريخ يجب ان يُروى دون إعمال فكرة فيما ننقلهُ لانهُ تراث تركهُ لنا السلف ولم يتح لنا مشاهدتهُ فعلينا ان نؤديهُ كما أُدي لنا وعلك ما يقولهُ فتستنتج ما وصل اليهِ فهمهُ في فلسفة التاريخ قال «لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج . . . وليعلم الناظر في كتابنا هذا ان اعتمادي في كل ما احضرت ذكرهُ فيهِ مما شرطت اني راسمهُ فيهِ انما هو على ما رويت من الاخبار التي انا ذاكرها فيهِ والآثار التي مسندها الى رواتها فيهِ ما ادرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس الاّ اليسير القليل منهُ اذ كان العلم بما كان من اخبار الماضين وما هو كائن من انباء الحادثين غير واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم الاّ باخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول .... وليعلم انهُ لم

يؤت ذلك من قبلنا وانما اوتي من قبل بعض ناقليه الينا وإنا انما ادينا ذلك على نحو ما أدى الينا » (١)

وجارى الطبري في فكرته المؤرخُ ابن الاثير فكان جماعٌ وإنْ لم يذكر كل ما جاء من الروايات بل نقل أتمها وهاك ما قالهُ في مقدمته مظهراً اراءهُ في التاريخ « فابتدات بالتاريخ الكبير الذي صنفهُ الامام ابو جعفر الطبري اذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليهِ والمرجوع عند الاختلاف اليهِ فأخذت ما فيهِ من جميع تراجمهِ لم اخل بترجمة واحدة منها وقد ذكر هو في اكثر الحوادث روايات ذوات عدد كل رواية منها مثل التي قبلها او اقل منها وربما زاد الشيء الكثير او نقصهُ فقصدت اتم الروايات فنقلتها واضفت اليها من غيرها ما ليس فيها واودعت كل شيء مكانهُ فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً على ما تراهُ فلما فرغت منهُ اخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها واضفت منها الى ما نقلتهُ من تاريخ الطبري ما ليس فيهِ ووضعت كل شيء موضعه الاَّ ما يتعلق بما جرى بين اصحاب رسول الله (ص) فاني لم أضف الى ما نقلهُ ابو جعفر شيئاً الاَّ ما فيهِ زيادة بيان او اسم انسان او مالا يُطعَن على احد منهم في نقله وانما اعتمدت عليهِ من بين المؤرخين اذ هو الامام المتقن حقاً الجامع علماً وصحة اعتقاد وصدق على اني لم انقل الاَّ من التواريخ المذكورة والكتب المشهورة ممن يعلم بصدقهم فيما نقلوهُ وصحة ما دونوهُ ولم اكن كالحاطب في ظلماء الليالي ولا كمن يجمع الحصباء واللآلىء» (٢) وقد يغتبط المرء لاعتماد ابن الاثير على الثقات ولكنهُ لا يغتبط البتة ولا يقر عيناً حينما يجدهُ جماعاً لا رأي لهُ فيما كتب او دوَّن . وإنا لنعترف بتواضعهِ فهو يقر بالتقصير ولا يدعي ان الغلط ممهو جرى بهِ القلم بل يصرح انهُ يجهل اكثر مما يعلم ومع ذلك فكان تاريخهُ مختصراً لتاريخ الطبري ولا فضل لهُ الاَّ بجمعه واختصاره وتدوين ما شاهد او ما وصل اليهِ من الاخبار في ايامهِ

قلنا إن المؤرخ ليس بالاديب الذي يضحي بالمعنى والحقيقة من اجل اللفظ والسجع وقد قرأنا كلمات لابن الطقطقي في مقدمة كتابهِ الفخري تثبت لنا براءتهُ من الايمان بمستغلق القول ومستهجنهِ وتبرمهُ منهُ لقلة الانتفاع بهِ ويُظهر لك ذلك اسلوبه السهل

(١) المقدمة للطبري ج ١ ص ٦ — ٧ طبعة ليدن
(٢) مقدمة ابن الاثير في كتاب الكامل ص ٢ — ٣

المنجم اذا قرأت كتابه من اوله الى آخره . وهي « أعبر عن المعاني بعبارات واضحة تقرب من الافهام لينتفع بها كل احد عادلاً عن العبارات المعقدة التي يقصدُ فيها اظهار الفصاحة واثبات البلاغة فطالما رأيتُ مصنفي الكتب قد اعترضتهم محبة اظهار الفصاحة والبلاغة فخفيت اغراضهم واغتاصت معانيهم فقلّت الفائدة بمصنفاتهم . من ذلك كتاب القانون في الطب لابي علي الحسين بن سينا البخاري فانهُ حشاهُ بالعبارات الغامضة والتراكيب المغلقة فبطل غرضهُ من الانتفاع بكتابهِ ولذلك ترى عامة الاطباء قد عدلوا عن كتابهِ الى الملكي السهل العبارة المفهم الاشارة » (١)

وهذا المقدسي مؤلف الروضتين حذا حذو ابن القفطي في الاسلوب الكتابي فاحتج على تضحية المعنى من اجل اللفظ ولذلك تراهُ ينتقد المؤرخ عماد الدين الكاتب الاصفهاني صاحب « الفتح القدسي » لانهُ كان يذهل طالب المعرفة باسجاعه ويتعب قارئهُ ويكد ذهنه في فهم الحقيقة التي يتوخاها . وإني كنت اقلب الصفحة تلو الاخرى مستجدداً بالصبر في هذا الكتاب لعماد الدين حتى استخلص زبدة ما يقول فاذا ما كتب في صفحات ثلاث او اربع يكتب في سطرين او ثلاثة ويقول المقدسي في انتقاد عماد الدين ما يأتي « الاّ ان العماد في كتابيهِ « الفتح القدسي والبرق الشامي » طويل النفس في السجع والوصف يمل الناظر فيهِ ويذهل طالب المعرفة الوقائع عما سبق من القول ويشيه فحذفت تلك الاسجاع الاّ قليلاً منها استحسنتها في مواضعها ولم تكُ خارجةً عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع نحو ما ستراهُ في اخبار فتح البيت المقدس وانتزعت المقصود من الاخبار بين تلك الرسائل الطوال والاسجاع المفضية الى الملال واردت ان يفهم الكلام الخاص والعام واخترت من تلك الاشعار الكثيرة قليلاً مما يتعلق بالقصص وشرح الحال وما فيهِ من نكتة غريبة وفائدة لطيفة (٢) » اه

هذا ما عنّ لي الآن واني متبع هذه الخواطر بغيرها في فرصة اخرى

المعارف الموصل انيس زكريا النصولي

(١) مقدمة النشري ص ١٢ (٢) مقدمة الروضتين في اخبار الدولتين الصلاحية والنورية ص ٥